

الفصل الثاني

ريفنا المصري

نلجأ جميعاً الى الهدوء والسكينة ، نختبئ بهما من الصخب
واللجب .

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى

وصوت انسان فكادت أظير

وأين نختبئ من صخب المدن وتكاليفها وضوضائها؟ وأين
نروح عن النفس عناءها وعن الجسم متاعبه؟ في الريف كل ما نطلب
من هدوء بعد صخب ، وسكون بعد حركة ، وبدواة ساذجة بعد
حضارة متكلفة ، في الريف مستراح للمعني ، وملاذ للمتعب ،
ومتنفس المكروب ، نعم ! في الريف نشد راحتنا وطأ نيتنا ،
ونجد عزاءنا وسلوانا ، ونرى أنفسنا رؤية الحقيقة فلقد قال
« أعرسون » : « ليس الأنا من سوي نجاح الطبيعة في تصوير
نفسها » وفي أي مكان نشهد جمال الطبيعة وجلالها ، ونجاح تصويرها
وكمال فنها ودقة صنعها . خيراً من الريف؟ في الريف معابد الجمال

حقاً لمن أراد أن يعبد الجمال ، فى الريف « ألوهية الفن » لمن شاء
أن يستلهم ملائكة الفن ، هنا « قدسية الدين » وخشوع الايمان
ونور اليقين ، لمن غشت عيونهم ظلمات الشك ، وختم الله على
قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، هنا يعبد الله فى كل
مكان ! فى الأرض منبت الخير والبركة ، وفى الشمس باعثة
الدفء والحرارة والحياة ، وفى السماء الزرقاء ، وفى النجوم المتألقة ،
وفى التمر المنير ، وفى الحتول الخضراء ، وتحت ظلال الكافور
والنخيل والتوت والصفصاف ، وعلى حافات الترع والقنوات الجارية
الوديعة المرحة ، وفى وجوه الريفيات الجميلات جمال الله لا جمال
« الإنسان » !

ما أجمل الطبيعة فى الريف ، وما أوسع « الكون » هنا ،
وما أروع « اللانهاية » ! وما أسهل طرق « المعرفة » لمن يريد أن
يبحث عن « المعرفة » ، هنا فى جمال الريف وهدوئه ، وتحت
ظلال أشجاره الظليلة الدافئة المتراوحة ، يجلس الباحث عن
« المعرفة » يستجلى الكون الواسع وأسراره الدفينة ، ويجول فى
تلك « اللانهاية » الواسعة التى لا ساحل لها ولا حد تنتهي عنده ،
ليصل الى الله ، الى العلة الاولى أو علة العلل أو « الحتمية المطلقة » ،
من طريق الأرض والسماء ، والنجوم والأفلاك والأجرام والنبات
والشجر والماء والشمس والزهر والحيوان ، من طريق « الإنسان »
ومن سبيل « الجمال » ، فمن « الجمال » وحده نتصل بالله ونعرفه

ونعبدده ونفهمه ونحبه ، والحب كما يقول « تاجور » هو كمال « الشعور بالنفس » ، ونحن لا نحب لأننا لا نفهم ، أو بعبارة أخرى نحن لا نفهم لأننا لا نحب ، لأن الحب هو المعنى الأسمى الأكمل لكل ما حولنا ، فليس هو عاطفة فحسب ولكنه « الحق » ، ولكنه الفرح الذي في صميم كل الحايقة »

الجمال والحب إذن هما سبيلنا الى الله وطريقنا الى عبادته ومعرفته ، ففي « الجميل » نرى الله وندرك سره في خلقه ، ونعبدده في قدرته وفي ابدائه وفي كماله ، ونتجد فيه اتحاد العلة بمعلولها ، ونفني فيه فناء الضعف في القوة ، والنقص في الكمال ، والتشويه في الأبداع والذهاية في « اللانهاية »

وإذا كان الجمال أساس الحب ، وكان الحب أساس الدين ، فأقوانا شعوراً بالجمال وأدقنا حساسية له حسن ، هو أشدنا خضوعاً لسلطان الدين ولقداسته ، وأصحنا فيما ومعرفة للملكوت الله وعظمته وكلامه

وإذا كان الريف في الغرب معبد الجمال ، ومهبط السحر ، ومستلهم الفن ، ومبتدع « الخالق » والتكوين ، ومستراح النفوس المعناة ، ودواء القلوب الكسيرة من ضنك الحياية ومن آلامها ، والصدور المكلومة من غدر الزمن وتنكره ، ومسرح الأرواح الهائمة الحائرة تبحث في « اللانهاية » الأزلية عن نور اليقين وعن سر الوجود ، فيتبدد شكها في أضواء الايمان وفي نور « الحب والجمال » !

أقول اذا كان الريف في الغرب عزاء المصابين وسلوى البائسين
وراحة المكرويين ومحجج العاشقين ومعبد المؤمنين وملكوت
« الفنانين الخائمين » ، فهل لنا ريف نحجج اليه ونحتمى به ونعبد فيه
الحب والجمال والقوة مثل ما للغربيين من ريف ؟ وهل لنا ريف
يخلق من العظمااء ومن النابغين ومن الفنانين ومن « الخالدين »
ما يخلق ريف الغرب من رجال العقل والقلب ، من أساطين الحكمة
وأنبياء الحب والجمال ؟؟؟ وهل لنا ريف يتجلى فيه « وحدة
الوجود » وتتمثل فيه قرابة « الجزء والكل » تمثيلها في ريف
الغرب ؟؟

يؤلمنا أن يكون الجواب : لا ! ، يؤلمنا أن نصرح بأن ريفنا
المصري كما هو الآن غير مستعد لأن يخلق لنا من الفنانين ومن
« الخالدين » ومن « الرسل » ما ينتظر منه في عصر الأحياء
والبعث والخلق !

يؤلمنا ويندي جبيننا من الخجل والأسى ، ونحني الرأس ذلة
وضعفا ، كلما وفد علينا من جماعات الغربيين والنازليين ، وكلما ضربوا
في ريفنا المصري الساذج النائم السادر ، فلا تقع أبصارهم إلا على
كل ما تتقرز منه النفس وإلا على ما يحقر من مهضتنا الكبرى
وينخفض من كائننا القومي ومن تاريخنا الخالد ، « فأوساط الجمال
الحي » في ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافي لما يفجر
القلوب بالاشعر الوجداني الحي وبالعواطف النبيلة السامية في يتظتها

وفي تجردها وفي حيويتها ، ولا لما يصعد بالأرواح العالية في «الكون العظيم» وفي «الملكوت الأعلى» وفي «سماوات الفن» نعم ليس في ريفنا المصري مهبطاً لرسالة الحب ولا لوحي الجمال ، ولا ربوعاً لفيض الألهام وفلسفة الأبداع وسر «الخلق» ، ولا مبعثاً لوفرة «الحياة» وزيادة «الأنتاج» وبهر السحر وسحر الفتنة ، بل دور متهدمة متناثرة ، وحقول نائمة ساكنة كسلة ، وترع راكدة كدرة فاترة ، وأشجار متجردة عارية صامتة ، وناس فقدوا أو أماتوا «حيويتهم» ما بين ضنك الفاقة والاسى ، أو بين الافلاس في سوق «الجمال والحب» !

نعم ! يكاد يكون من أشد العوامل في هبوط «حيويتنا» وفي الافلاس في خلق رجال ونوابغ وفنانين وشعراء ينهضون بنا وبالعالم جميعاً من هذا الركود الروحي وهذه الرخاوة الشعورية الفاترة المتبلدة ، هو اننا لا نعني قليلاً ولا كثيراً بتوسيع دائرتنا الثقافية من ناحية «الجمال» ، فليس للحياة لدينا قيمة أكثر من انها وسيلة الى ارضاء شهواتنا المادية المنفعيه ، والى استدرار الأموال واكتنازها ، والى حشو البطون وامتلائها ، أما قلوبنا ، أما شهواتنا الروحية ، أما ثقافتنا «الشعورية» ، أما ناحيتنا «العليا» وكائننا «الأسمى» ، فتكاد تكون لدينا جميعاً نافلة من النوافل ، و«لا شيء» بين الأشياء ، وهذا ما يجعل حياتنا موحشة قفرة فقيرة مظلمة مبعوضة ضيقة ، وهذا ما يدعونا الى أن نطأطئ الرأس ذلة وخجلاً وعاراً ، اذا

ما سمعت آذاننا أسماء نابليون وروسو وشكسبير وجوت ودانت
وبيتهوفن وفولتير وماركوني وأديسون وتاجور وغيرهم ، هنا أمام
هذه الاسماء الخالدة نشعر بذلة في (فخارنا النومي) ، لاننا لانعطي
حياتنا قيمة إلا من الوجهة المنفعية ، ولا نفهم الحب إلا انه وسيلة ،
ولا الجمال إلا انه فريسة شهوة وضيعة ، وماهية فارغة لنفوس خاملة
وقلوب ضعيفة

وإذا كان هذا حالنا من الفقر في الشعور والجنود في (الحيوية)
والركود في (الإنتاج) وإذا كنا لا نعنى كثيراً ولا قليلاً (بثقافة
الجمال) ولا نخلق لأنفسنا بأنفسنا معابد الجمال ومهابط السحر ،
ومباعت الفن والخلق والفتنة ، من هذه الأرض المدحوة الخيرة
المحسنة الغنية ، ومن هذه الحقول الخضراء الوديعه الساكنة ، ومن
هذه الأشجار العالية الصامته المتروحة ، ومن هذه (الكائنات
العليا) كما يسميها (لامارتين) التي ينقصها يد الأثري ليخرجها
وينفض عنها غبارها ، ويبرزها للعالم وللوجود فيضاً للإلهام ورسولاً
بالنور وبالخلق وبالحب وبالجمال وبالحياة جميعاً

أقول اذا كنا نحن بأنفسنا دعاة انحطاطنا ومعاول هدمنا ،
فنحن أيضاً بأنفسنا يمكننا — لو شئنا — أن نرفع (حيويتنا) وأن
نخلق من أرضنا جنات نحج اليها ونحتمي بها ، ونجد فيها أنفسنا ،
ونغذي فيها عقولنا وقلوبنا وأرواحنا ، فتعترف عيوننا بالنور وتستمتع
قلوبنا وأرواحنا بما في الوجود من حب وجمال ومن سحر وفتنة

وابداع واعجاز ، وتفويض عن عقول خالقة محققة ، وعن رجال
ونساء يشعرون الحكمة والقوة والجمال في الارض جميعا !

ونعود الآن الى ريفنا الساجي السادر الفقير ، والى حقوله
الصامتة الساكنة الخيرة ، والى شمسه الوفية الدافئة ، والى بداوته
القناعة الراضية في ظلال الدعة والسكون ، وفي آثار ومخلفات
الأجيال الغابرة والمصور الدابرة

ما أجمل تحية الشمس لأبناء الريف ! وما أجملها حين تطالع من
خدرها وتلتفت من حو لها ، كالحسناء المفتونة بسحر جمالها وبسلطان
دولتها على القلوب ، تصحو من نومها وتنهض من سريرها ، تنزىل
أعضائها من فتور النوم ، ويتراخي جسمها ويتبدل من كسل
الراحة وسكرة اللين ونعومة الرخاوة ، تظهر على عيونها الدعج
الناعسة الفاترة ، والنائمة اليقظة ، والمتبلدة النشطة ، وعلى جفونها
الخامدة الساكرة ، وفي نظراتها المتكسرة الحائرة الحمية !

ما أجملها حين تتسالى من مطاعها على أبناء الريف من وراء
الأبنية الواطئة البادية البسيطة الفقيرة ، ومن خلال أوراق الشجر
وسعف النخيل وأغصان الصفصاف المتهدلة في الترع الساجية ،
ومن وراء الحمول المحسنة الخضراء ، والقباب البارزة بين الدور في
القرية ، وابراج الحمام العالية فتنعكس على الماء الجاري في القنوات
وفي الترع ، وعلى سنابل الزرع الأخضر وأعواد الأذرة الجميلة
الجميلة في خضرتها وفي خيرها وفي زهوها ، وعلى وجوه الريفيات

الجماليات حاملات جراتهن المتمايلة المستهتره المتسكبره بمرح ونشاط ،
في تيهه وعجب وتدال ، نعم ! ما أبهى طلوع الشمس على وجوه
الجماليات في الريف مبكرات في أعمالهن خفيفات الى تحية الشمس
الخيرة مصدر الدفء ومبعث الحياة .

جميل جداً ذلك السرب من النساء الريفيات ماشيات على
شواطئ الترع يخطرن في زهو وفي نشاط ، مبتسمات في غير كلفة
ولا صنعة ، مطمئنات الى حياتهن البسيطة الخشنة ، غارقات في نعيم
الجهالة المظلمة ، خارجات مع الشمس الساطعة يحيين معها الآله
العظيم في ملكوته وفي صنعه وفي ابداعه ، وكم في الريف الساجي
الهاديء من حسان ذهب جمالهن بين ضنك الفقير وأوجاع الأسيء ،
وبين أغوار الالهال وظلام الجهالة ، واختبان بين القرى والكفور
بعيدات عن عوالم النور وعن معارض الجمال وملاعب السحر !!
وياما أجل منظر الفلاح المصري النشط خارجا مع الشمس
الى حقله وعمله يقود أمامه ماشيته واغنامه آله خيره وبركته ، ويجر
محراثه الخشبي البسيط الذي تغير وجه الارض وتطور كل من
عليها ، ولا يزال هو هو في بداوته وفي بساطته كأنه يهزأ من تلك
المدنية ومخترعاتها وخيراتها !

يخرج ذلك الفلاح النشط مبكرا من داره حاملا على كتفه
فأسه وغلقه وأمامه ماشيته ، غير مدخر لنفسه راحة ولو قليلة من
عناء العمل ، ممتثا بوفرة النشاط وبحب العمل وبالشعور بالواجب

الذي هو أساس كل الأخلاق جميعاً كما يقول (كانت) ، واشهد
الله أنه قاما يوجد من كل صنوف الفلاح في العالم مثل الفلاح المصري
نشاطاً وجلداً وصبراً على السكدح والعمل ، وتحملاً للبوأس والسكد
وللألم ، فهو في الحق (فخر مصر وسيدها)

أول ما تشهد في الريف إذا ما تسلت أشعة الشمس من بين
أوراق الشجر ووراء القباب والدور المتواضعة جماعات الفلاحين :
هذا يحمل محراثه ، وذاك فأسه ، وآخر يسحب ماشيته ، وآخر
اغنامه أو جماله ، وجمعا عديدا من الاطفال الصغار الذين خلقوا من
الارض ليعيشوا على الارض وليموتوا في الارض دون أن يعرفوا غيرها
عالمًا أو وجوداً ، يخرجون الى الحقول والغيطان ، ويعلمون الفلاحة
والزراعة ولما يشبو عن الطوق ، ولما تحمل أبدانهم آلام السكد
وارهاق العمل ، حاملين معهم غذاءهم هم وآباؤهم في مناديل أو في
أسبات من الخوص ، وسر با منتظما من النساء تارة ومنتثراً أخرى ،
ما بين حاملات جراتهن من الترع ، أو خارجات مع أزواجهن الى
الحقول يشاركنهم في تلقيط أذرة أو جنى قطن أو حصاد قمح أو
نقل سبائح أو حمل ردم أو ري زرع

هذا المشهد الجميل من النشاط المفرح الفاخر المتسرب في
الرجال والنساء معاً والأطفال أيضاً ، هو أول ما تشهده في الريف
وتحدث نفسك عنه حديث الأعجاب بل الافراط في الأعجاب ،
لأنك تشهد فيه روح الشعور بالواجب والأيمان بالعمل وبالحياة ،

في تلك الطبقة الجاهلة البسيطة النشطة العاملة التي تدر الخير على البلاد لبناً وعسلاً ، ولكننا نجهاها ونزدر بها صلماً وعتواً ، قتل الأسان ما أجدده وأكفره !!

هذا الشعور بالواجب الذي تشهده في الفلاح هو خير ما في الريف ، ويا ليتنا جميعاً نشعر بهذا الشعور ! إذن لتغير وجه تاريخنا ، وإذن لأصبحت الأمة كلها فرداً واحداً يشعر بشعور واحد ويخضع لقانون واحد : هو قانون الواجب لأنه واجب ، ياليتنا نعمل كأن كل عمل من أعمالنا — كما يقول « كانت » — سيصير قانوناً عاماً ، ياليت كل فرد منا يقوم بواجبه في حدود وظيفته ومواهبه واستعداده ، إذن لانتجت هذه الجهود الفردية المنظمة خصبا وحياة وقدرة ونوراً !!!

وإذا خرج الفلاح الى حقله في الصباح خلع ملبسه هناك ليستعد للعمل المجهد ، فتراه واقفاً في غيظه أما باحثاً مفتقداً مسارب الماء ليروي زرعه ، مجتهداً في أن يزيل كل عائق أمام الماء ليجري خالصاً حراً في القنوات الضيقة ، وأما جالساً على نوره في (الجرن) يدرس قمحه او برسيمه أو فوله ، وفي أي وقت ؟ في ساعة الظهيرة حيث لا ترحم الشمس أحداً ومع ذلك تراه حافي القدمين عاري الرأس ، متحملاً حرارة الشمس بجلد كريم وصبر جميل غير ناغم على هذا الوجود ونظامه الذي يضطره أن يسلك في سبيل العيش والحياة هذه المسالك الخشنة الوعرة ، بل مستمرئاً كل هذا الجهد

وهذا الألم في سبيل أن يجيا وأن يعول أولاده المساكين !
وفي الوقت الذي أراد القضاء الاعلى ان ينام فيه ناس ويتقلبوا
على الدمقس المقتل والاسرة الناعمة الهزازة والوسادات الحريرية
الرخصة .

في هذا الوقت يجلس فيه صاحبنا الفلاح على نورجه هذا هو
وماشيته الامينة الوفية ، تحت نار الشمس ووهجها وسفع التراب ،
ليفندي العالم بخيرات غرسه وبركات زرعه ، وليحبيهم من عرقه
ومن شبابه ومن قلبه ودمه بل من حياته جميعا .

تراه في حقله مشمرا عن ساعديه بمجد ونشاط ومرح حاملا فأسه
يفلح بها الارض ويضرب بها بين الحشائش لينقذ زرعه من شرها ،
منحنيا بظهره لا يرفعه الا ليأخذ نصيبه من الراحة ولو قليلا ، ممسكا
بمحراته الخشبي العريق في القدم يشق به الارض شقا ويقلب عاليها
سافلها ، أو يحمل الردم والسباخ لاولاده الصغار الذين يشاركونه
في عمله ويقاسمونه تعبهم وهموم عيشه ، ويظل في عمله هذا حتى اذا
حان الغداء حملت اليه امرأته سلة من الخوص بها بضع ارغفة من
الأذرة أو الحلبة ، ومعها قطعة من الجبن أو جانب من المش والبصل
أو (الخلال) أو العسل الاسود أو اللبن الرائب ، وهذا هو غذاؤه
معظم الايام ان لم يكن كلها ، ولكنه قانع بعيشه راض بهومومه على
خشونته وبساطته .

واذا ما آذنت الشمس بالمغيب والتهب قرصها وراء الاشجار

وبين دكنة السحب ، عاد صاحبنا من عمله ومعه ماشيته وآلاته ،
وعلى وجهه ابتسامة الرضي والبشر ، وجمال الايمان وخشوعه ، يجري
في عروقه دم النشاط حاراً دافقاً كأنه لم يعمل شيئاً في مزاره يظلم هذه
الابتسامة أو يفضن هذا الوجه الباسم الراضي ، وكأنه بذلك عاهد
اخته الشمس على ألا يخرج الى عمله إلا معها مشرقة ، ولا يعود من
عمله إلا معها غاربة ، وفاء دونه أي وفاء ، من الفلاح اشمس
الفلاح !

ولكن هذا الفلاح الهاديء الباسم في غيظه وعمله ، تراه
يفور فائره اذا علم أن دور الماء أتى واعتدى عليه غيرد ، بحيث يعوقه
عن ري زرعه ، واحياء خلاصة لحمه ودمه وحياته جميعا ، هنا
تختبيء نفسه الطيبة الهادئة الوديعه الى حين ، وتظهر نفسه الشرسة
الباطشة ، يحاول أن يمنع هذا المعتدي على الماء ، فان أبي فليس أيسر
لديه للبطش به من (النبوت) يشجج به رأسه أو يهشم أضالعه ،
حتى لو استحكمت الحلقات وضابقت به آلات البطش والضرب ،
فألى الفأس يقضي بها عليه ، فالماء حياة زرعه وزرعه حياته هو !
ندع الفلاح الآن قليلا ونعود الى شمس الريف الجميلة ثانية ،
فلقد شاهدناها مشرقة باسمه جميلة ، في يقظتها وفي مطاعها ، وفي
فتنتها وفي بهرها ، بين ضباب الفجر وبلل الندى ، وروح الازهار
والرياحين ، فلنشاهدها غاربة باسمه أيضا ، ولنقف أمامها تقدم

فروض التقديس والعبادة والخشوع ، الخالق هذا الكون العظيم في
سعته ، العظيم في سره ، العظيم في صمته وفي افصاحه وبيانه
شمس الريف الجميلة الجليلة العظيمة ، معبود اجدادنا في اعماق
القدم وطفولة الزمن ، يعبدون فيها الدفء والحرارة والحياة والقوة
والخير جميعاً ، هذا المعبود العظيم للفراعنة العظام ، وهذه « القوة »
العظمى المقدسة ، لأولى الجبروت والقوة والقداسة

هذه الشمس الجميلة المهيبة المقدسة ، لن تراها جميلة حسناء
فاتنة جليلة ساحرة في خير من الريف ! ما أجملها وما أجملها حين
تتوارى في صفحة السماء الزرقاء ، فاذا بالزرقة حمرة ، واذا بالحمرة
جمال وجلال وفتنة وقداسة وعبادة ، وما شئت من فنون السحر
والبهر ! ما أجملها حين يتأهب قرصها الاحمر الوردي في أتون السحب
المتقطعة المتناثرة اللاهية ، في قنাম مهيب حيننا ، وفي نور جليل نقي حيننا
آخر ، في هذه الحمرة انوردية أو هذه النار البرتقالية ، يتمثل قداسة
الماضي وطفولته وقدمه ، وعظمة الحاضر وقوته ونشاطه ، وآمال
المستقبل وأحلامه وأسراره ، وفي هذه الصور من القداسة والجلال
والعبادة ، لآلهة الدفء والحرارة والحياة ، وفي هذا الماضي والحاضر
والمستقبل ، تتجلى « وحدة الوجود » ، ويبرز « الكل الاعظم »
متآلفاً متآخياً مع (الجزء الصغير) ، مع العضو (المنفعل) أو مع
القوة (السالبة)

يعود مع الشمس كما خرج معها جماعات الفلاحين بما شيتهم من

ابقار وجاموس ، وبحميرهم ، وبأغنامهم وبكلابهم أيضا ، وبصغارهم
راكبين الحمير أو على ظهر الجاموس ، وكم هو جميل صوت الفلاح ،
صوت تتمثل فيه الطمانينة النفسية والرضى والقناعة ، وهو عائد من
عمله ساعة الغروب يسلي نفسه بتلك الاغاني الريفية الجميلة في براءتها
وسذاجتها !

هذه الحركة الحية الشاملة كل نواحي القرية نهارا ، وهذه
الجموع العديدة من الرجال والنساء والاطفال ، لا تلبث كلها أن
تهدأ بعد الغروب وتسكن الى الدور تستجم فيها من العناء ، وتجد
فيها الدعة والراحة والسكون ، فلا تعود تسمع صوتا ولا جلبة ، ولا
هيق الحمير ولا غشاء البقر الذي كنت تسمعه في النهار ، فالآن ساد
السكون ، وتسلم الليل زمام الحكم ، وعم الظلام الداجي الرهيب
وهدأت الحركة ، وسكن الزوج الى زوجته وأولاده يجد لديهم
راحته من عمله وهناءة عيشه وسلوى همومه وتعبه ، وأين يجد
الآباء هناءة العيش ورفهه ، في خير من عناية الزوجات وعبث
الأبناء وهو الأطفال ! !

اعل خير ما في ريفنا هدوءه وسكونه ! فهذه القرية التي كانت
مظهر نشاط شامل ، ومعمل حركة دائمة وحياة دافقة ، قد خيم
عليها الهدوء وعلتها رهبة الصمت البليغ وخشوع السكون المهيب ،
وسكن الناس الى ديارهم الفقيرة في ذلك الليل الرهيب رهبة الموت
وفزعته ، ويا ما أرهب الليل في الريف ! سكون تام عن الحركة ،

ونوم كأنه موت ، أو موت كأنه نوم ، أو صلاة صامتة وتسبيحة
دائمة ، وعبادة خاشعة ساكنة ، وفناء الوجود كله في آله الوجود
وخالق الكون ورب السموات والأرض ، فناء حي بطيء مستمر ،
قوي في ضعفه ، سريع في ريثه وبطئه ، شاعر في خواده وسكرته ،
عالم في جهله ، متعبد في صمته !

في هذا الصمت الحاشع لم تعد تسمع صياح الأولاد في الفيضان
ولا صوت (الفرقة) يضرب بها الفلاح بقوته أو جاموسه ،
ولا يقرع أذنك صوت الحير المنكر ، ولا غناء الجاموس والبقر ،
ولا صياح البط والأوز في الترع ، ولا شجار جماعات الفلاحين
ولا مشامخة النساء لسبب وانحير ما سبب ، فكل هذا قد هدا إلى
حين بين بطون الليل وغياها به ، واستكن في ظلماته ودكنته ،
واطمان الناس إلى الحياة هادئة راضية وديعة آمنة في سواد الليل ،
بعد ان أصابهم الجهد ونال منهم الغوب في بياض النهار ، وعدت
لا تسمع حفيف أوراق الشجر ولا هسيسه ، يلاعبها الهواء وتعبت
بها أشعة الشمس اللاهية ، ولكن عم السكون كل شيء ، ونام كل
شيء عن الحركة ، وباتت القرية ساكنة هادئة في ظلمة الليل الرهيب
متهجدة متعبدة قانتة ، تحمد الله على ان حبا أهلها فيض الزرع والخير
ونعمة العافيه وسعادة الطمانينه والرضى ، ومتى تحلو العبادة وترفع
الأدعية خالصة ظاهرة في خير من رهبة الليل وظلمته ؟ ومتى ينجي
الآله وتصعد إليه الشكايات والآلام والجراحات في خير من نوم

الطبيعة والفناء الحي للوجود ؟ وأين يكون الليل أشد رهبة وأبلغ صمتاً وأكثر وحشة منه في الريف ؟

هذا فلاح مسكين شقي ، جلس الى مصلاه المتواضعة المفروشة بالقش وبأعواد البردي وبالخصير البالي . على حافة التربة ، في سكون الليل ورهبته وفي نوم الوجود وغفوته ، يقدم لربه فروض العبادة والخشوع ، ويسأله أن يفرج كربه وأن يجيب سؤله وأن يشفي مريضه ، وهذه امرأة مات زوجها عن أطفال صغار لم يعرفوا بعد غدر الزمن ولا هموم العيش ولا جهاد الحياة ، ترفع أكفها ضارعة الى الله ملاذ البائسين ورب الشاكين السائئين ، أن يكف هؤلاء الصغار برحمته وعنايته ويجود عليهم بمنه وفضله ، وأن يبسط لهم من الرزق والخير ، فهي أعجز من أن تعولهم وأفقر من أن تقوم بعيشهم ، وهو تعالى أكرم مستؤل !

وهذا فلاح آخر جلس أمام داره بعد ان نام أطفاله ، وبعد ان سجد الليل وابتدأت القرية في صلاتها وعبادتها ، يسأل الله بصوت يقطعه ذلة البؤس وتخنقه عبرات الأسي وأوجاع الشقاوة ، أن يمكنه من تسديد ديونه لما لكه الذي لا يرحمه ، وأن يرفع عن القطن هذا العام حتى يتيسر عيشه وحتى يمكنه أن يكسو أولاده وزوجه من عريهم ، وأن يبارك له في محصوله ليعوض بذلك من محصول العام الماضي ، حيث خانته الحظ وعما كسه القدر واستبد به المالك !

في هذا الهدوء الشامل الرهيب ، وفي هذه الصلاة الخاشعة

الصامته ، تسمع صوت المؤذن في المصلى يؤذن بصلاة العشاء فتهربك
هزة الأيمان وعلاك عليك كل قواك وكل وجودك قداسة العبادة
وجلالة الخشوع ، فترهف بأذنك مع القرية الهادئة الساكنة ومع
النبت النائم المتعبد ، ومع أوراق الشجر الناعسة المسبحة القاننة
المرتلة ، ولا يسمعك إلا أن تستسلم ، وإلا أن تندمج وتتحد مع هذه
« العابدات » ، وإلا أن تشاركها في صلاتها وفي تراتيلها ، وإلا أن
تفنى معها في فناء الوجود كله في ذات الله العليا المقدسة ١

يسلمك هذا الصوت الخاشع الجميل وهذه الصلاة الدائمة وهذا
الفناء الحي إلى الذكريات العديدة ، فتذكر نفسك وتذكر علاقتك
بربك وواجباتك إليه ، وتقودك هذه الذكريات إلى أن ترفع رأسك
وتحدق في السماء ومجتملي جلالها مزدانة بالنجوم المبتوثة المتألقة في
صفحة السماء اللكناء في ذاك السواد الرهيب ، فتفكر في نفسك
وفي وجودك ، وفي هذا الكون اللانهائي العظيم الذي تعجز عن
ادراكه وفهمه عقولنا ومداركنا وكل ملكاتنا ، ومع ذلك يدعونا
الغرور والكبرياء الانساني إلى أن نظن أن عقولنا قادرة على
ادراك كل شيء ، وتحقيقه ، وأن مشاعرنا في مكتبتها أن تحس وتشعر
بكل ما في الوجود والكون ، وفي الحق أننا لا نفهم قليلا ولا كثيراً
حقيقة من حقائق هذه الوجود فهما حقاً صادقاً يمكننا أن نطمئن إليه
ونقتنع به ، فما يدرينا أن هذا حق وما يدرينا أن هذا الذي نسميه

« عقلا » قد لا يزيد معرفتنا تدبياً وهدوءنا قلماً و يقيننا شكاً ،
وما يدرينا أن حكمه صحيح أو خطأ ، سليم أو سقيم ؟

يقول أنا تول فرانس : « كل ما خطر ببالك فالكون بخلاف
ذلك » فإذا كان هذا حقاً ، فبماذا ندرك هذا الكون ونفهم هذا
الوجود إذا كنا لا نطمئن لا الى حكم العقل ولا الى شعور القلب ؟
أهكذا قضى علينا بأن نعيش مشردين ملفوظين أمام هذا الباب
القدسي الموصل أمامنا ، محرومين معرفة الوجود الذي نعيش فيه
والنور الذي نراه ، غرباء حتى عن « أنفسنا » ؟ ؟

أهكذا قضى علينا أن نصرخ ونهتف مع المهري حين استحكمت
عليه حلقات الحيرة وحفره التشوف الى المعرفة فصرخ صرخة من
اللحم والدم ، من نسيج الأسي وذلة الضراعة
جهاننا فلم نعلم على الحرص ما الذي
يراد بنا والعلم لله ذى المن

الى أن قال

طلبت يقيننا من جهينة عنهم
ولم تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهديني لا أزال مسائل

فاني لم اعط الصحيح فأستغني

أين عقولنا ومدار كنا وقلوبنا من هذا الملكوت الواسع وذلك
العالم الكوني اللانهائي العظيم .؟ ما هذا الكون ؟ وما كنهه ؟ وما

غايته؟ وما مداه؟ ومن نحن في هذه العوالم الكونية الواسعة العديدة؟
وماذا وراء هذه السماء وهذه النجوم؟ ماذا تحت هذه الأرض؟
وماذا عند هذه الكواكب؟ وماذا وراء هذه الحياة؟ الموت؟
وما الموت؟ وماذا بعده؟ ولماذا؟ وما لون هذه الحياة الأخرى
الموعودة؟ وما صلتها بحياتنا الأولى؟ وإذا كان الموت هو خاتمة
حياتنا الأولى فما هي خاتمة حياتنا الثانية؟ وما البعث؟ وما الحقيقة؟
وما الوجود؟ وأين ينتهي؟ ومن نحن؟ وماذا كنا ومن أين أتينا
والى أين نذهب؟ وماذا كان الوجود وماذا كانت الحياة؟ وماذا
يراد بنا؟ وما غايتنا من حياتنا؟ وماذا نعرف؟ لا شيء!

تلك وجوه أسئلة قد تمر بنحو اطرننا اذا رفعنا رءوسنا الى السماء
نبتلي سرها ونفكر في جلالها وعظمتها ورهبتها، ولسنا نملك في هذه
الحياة الا أن نسأل والا أن ننادي، فنحن نناديه تعالى كما يقول
لامارتين — وان لم يسمع، فان عظمتنا في أن ندعو وعظمته في
الأجيب «

الى أي حد نصدق العقل ونقبل حكمه راضين مطمئنين؟
وترى ماذا يحل لنا مشكاة الوجود وسر الخليقة ومسألة المسائل:
هل هو العقل؟ هل هو القاب؟ هل هو الأيحاء؟ هل هي الغريزة؟
هل هو الإلهام؟ هل هو الكشف أو الوجد؟ وبماذا نعرف
« السر؟ بماذا نفهم « المجهول »؟ هل بالحب كما يقول « تاجور »
والمتصوفة؟ أو هل بالعلم؟ أو بماذا؟ أو ترى أن « المعرفة » ليست

من حقوق الانسان او اختصاصاته في هذه الحياة ؟ اهل هذا هو
الأقرب الي الحقيقة الضائعة « المجهولة » !

لقد نقد « كانت » العقل البشري في كتابه (نقد العقل
المجرد) وأظهر أنه لا يعيننا على المعرفة ولا يساعدنا على الوصول
الى الحقيقة وأنه معرض للخطأ في حكمه وأنه لا يرينا الا صورة
الحقائق لا كنهها وانه لا يجدر بنا ان نتاقي حكمه بالقبول الأعمى
وبالاستسلام المطلق ، واستنقصه أيضا « برجسون » في كتابه
(التطور الخالق) ويين فيه ان عقولنا وحدها عاجزة كل العجز عن
استظهار حقائق الحياة وفهم الكون فهما يرضينا ويقنعنا ، وأنا
لسكى نفهم الحياة ونستقرمها فهما كاملا واستقراء مرضيا ، يجب ان
يكون فينا « اللاوعي » النبات وغريزة الحيوان وبصيرة الانسان ا
هذا ولا يزال استنقص العقل كعيار ثابت للحكم على الاشياء
والوصول الى الحقائق سمة هذه العصور او هذا العصر الذي تززع فيه
الثقة بكل شيء لا يتفق ونظرية التطور الذي هو سنة الحياة ، هذا
العصر الذي اصبح لا يعني الا بالواقع المحسوس والذي اخذت
تزعزع فيه الثقة بالعلم وبما أخرج للناس كهاد يهدينا جميعا الى ادراك
اسرار الانسانية والى فهم الوجود والى علاقة الجزء بالكل والفرد
بالوجود وبمخاqqه الاعظم ا وغاية آمانا أن يهتدى هذا العالم الجديد
الى النور الذي يكشف له ماخفي من حقائق الوجود وما استبهم من
اسرار الكون ، وان يكون نورا ينير العقل ويرضي القلب ويقنع

الروح ، نورا ينقذ الانسانية من هذا الظلام الروحي الذي تتخبط
في غياهبه ومن هذا الأسر الذي تعيش فيه ، حتى تؤتي آثارها
وتنتج ثمارها في ظلال الدعوة والطهانة واليقين والسلام والحب
والخير والايان

واذا ما أخذ الليل الساجي بهصر استاره ويرفع نقابه ، وانباج
نور القمر يتحلب بين اشجار السنط والصفصاف والكافور ،
استيقظ الفلاح من نومه على صوت المؤذن يدعو الى الصلاة قبل
ان تطلع الشمس على العباد تحييمهم تحية الصباح السعيد ، واشتركت
ديكة الصباح في الدعوة الى اليقظة والى الصلاة ، وما أجملها تقف
على اسطحة الدور بأعناقها الطويلة وريشها الجميل توقظ الفلاحين من
رقادهم وتحثهم على القيام بواجباتهم والصلوات لربهم اوفاء للفلاح
أى وفاء حتى من الديكة ا وكم يكون جميلا خاشعا رهيبا نداء
المؤذن : الله اكبر ا والناس نيام والطبيعة كلها متعبدة قانتة
ناعسة يقظة ا

الله اكبر ا الله اكبر ا الله اكبر ا الله اكبر في جلاله وعظمته ،
الله اكبر في خلقه وابداعه ، الله اكبر في رحمته وغفرانه ، الله اكبر
في نعمه واحسانه ا هنا يغمر النفس خشوع الرهبة وجلالة الايمان
وقداسة الدين ، هنا تتحد النفس مع الله وتفتى فيه
اتحاد حب ومعرفة وولاء ، هنا امام هذه الكلمة المقدسة العظمي
الجميلة الرهيبية الجامعة ، وامام هذه الطبيعة الشاعرة الناطقة في صمتها

وفي كلامها وفي حركتها وفي سكونها بهظمة الله وبجلال الكون
وفسحة الوجود ، هنا تنطوى « النفس » وتنحني لتفتى في الله
وتندمج في الطبيعة وتجد « نفسها » وتشعر « بذاتها » وتخرج من
« الافيديا » (AVIDYA) من هذا الجهل بالشعور بالنفس كما يقول
« تاجور » ، الى النور والى الحب والحق ، هنا تهتف النفس صائحة
فرحة باسم الله وتدع من مثل « داروين » رجلا مؤمنا وتضطره أن
يصيح وان يهتف : يستحيل على العقل الرشيد ان يمر به خالجة من
الشك في ان هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغات وتلك
الانفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء لان العما لا يخاق نظاما
ولا يبدع حكمة ، وذلك اكبر برهان عندي يقوم على وجود الله
هنا تنهزم العدمية (النهيلازم) ويتبدد الألحاد ويعلو الحق والايان !!!
لقد انسيت أن اذكر حين تحدثت عن الفلاح أن اخلاص
وأوفى صديق اليه هو كلبه ، فهو في الليل اما ان يأخذ مقعده على
سقف الدار واما امام بابها ، ولا تغفل عينه عن حركة يشعر بها ولو
هسيسا ، فأن رأي ولو طيفا أو خيالا ولو لم يكن في حارته فضحه
بالنباح العالي ، ثم تسرى عدوى النباح فتغدو القرية كلها نباحا
وصياحا ، وفي النهار يخرج مع المواشي أو مع الاغنام ولا يعود
الامعها ، واذا حدث ان اعتدى على سيده احد دافعه عنها الكلب
قدر جهده واستطاعته ولو تذهب في سبيل الذود عنها وعن صاحبه
حياته ولو يحترم الرصاص قلبه أو يمزق جسمه !

فأين وفاء الانسان من وفاء الكلب ؟ وأين غروره ووصافه من
شجاعة الكلب وتواضعه ؟ وأين غدره وخيائته من اخلاص الكلب
وأمانته ؟ فاذا ذكرت وفاء الكلب لصاحبه في الريف قادتني
الذكرى وسرى بي الخيال والخطر الى كلب « لا مارتين » وكيف
خاطبه ولطفه وتجبب اليه حين قال له : « ان كنت أيها الكلب
راقداً في مواطئ النعال فلا أذكر ان قديمي مستك يوماً ما احتقاراً ،
كما اني لا أذكر اني زجرتك يوماً بكلمة تجرح حنانك وشفقتك »
وايس كلب « لا مارتين » وحده هو الجدير بأن يأنس اليه
صاحبه ويخاطبه ويجد لديه العزاء والسلوى عما في الحياة من مكر
وخديعة وكذب وغدر ، وايس « لا مارتين » وحده الذي تعوزه
السلوى فيتفقدونها عند الكلب وعند الحيوان جميعاً ، وقد افتقدوها
عند الانسان النبيل الكريم حتي لم يهد يؤمن بصداقة ولا يعتقد في
اخلاص ، بل كانوا « لا مارتين » ، بل كانوا نجد في حياتنا كل يوم
وكل لحظة غدر الأصدقاء وتنكرهم ساعة الشدة وتكالبهم ساعة
الرخاء ، وكانا نهتف مع المتنبى قائلين : « اذا عظم المطلوب قل
المساعد » ونصرخ مع المعري في صرخته المرة
ومن عاش بين الناس لم يخل من أذى

بما قال واش او تكلم حاسد

وكل من رأى في تجاربه الخاصة نكران الجميل ودناءة الأصل
والخيانة من أعز الأصدقاء عليه وآثرهم لديه ، وكل من هزأ وسخر

وشك شكايكاد يكون انكارا لصداقة الانسان المزعومة ولو فائه الكاذب واخلاصه الاجوف ، ويحث عنها عند الحيوان الذي لا يعرف الكذب ولا الخداع ولا الزلفى ولا الرياء ، وأصبح كل منا تقريبا « لا مارتين » نجلس الى كلابنا والى قططنا الصغيرة الجميلة البريئة نستأفى ، لديها بحرارة الوفاء ، ونجد فيها جميل السلوى وحسن العزاء ، وبماذا نعزى نفوسنا في هذه الحياة الطويلة أمام هذه الضروب المختلفة من غدر الاصدقاء وتنكرهم وكيدهم ، ومن خصومة الأعداء وانتقامهم ومن عداوة الزمن وقسوته ، بماذ نرفه عن نفوسنا المعناة وقلوبنا التي طفحت بالغضب وبالسخط وبالوان الهموم وصنوف الأسى ، اذا لم يكن بكاب نلاعبه ونخاطبه ونمأس عليه ونصاحبه ونماشيه ، أو بقطة صغيرة نضعها على ركبنا ونعبث بشعرها الناعم الجميل ونشاكسها ونلعبها ، ونجد لديها راحة الجهد وجمال العبث وحسن السلوى وخير البر والوفاء ؟ !

لا أريد ان اترك هذا الفصل قبل أن اقول كلمة عن « حياة اللهو » في الريف ، وفاء للعهد مع القاريء الكريم ان تصور له حياة الريف المصري تصويراً ان لم يكن صادقا كله فهو قريب من الحق والصدق ، وهذه هي بعيتنا وقصدنا من هذه « الأحاديث » او هذه الرسالة : محاولة متواضعة لتصوير ريفنا وفلاحنا للبيئة المدنية التي تجهله ويجهلها

وماذا تتصور أن تكون حياة اللهو في ريفنا المصري السادر

الساكن الذي تنقصه « الحياة » والحركة ، المحروم من كل وسائل الاستمتاع بالوجود استمتعاً عمرها مرضياً؟ لقد ذكرت لك أن « أوساط الجمال الحي » في ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافي لقلوب طامحة وعقول خالقة محققة ونفوس أبية كريمة كبيرة ، وإن معنى « الحياة » عندنا يقدر بمقدار ما تدر علينا الحياة من أرزاق ومنافع وحاجات ورغبات وشهوات ، أما الغاية من الحياة لأنها « حياة » ، أما أنها وسيلة وغاية ومثل أعلى فلا نعنى بهذا قليلاً ولا كثيراً ، وإذا كنا نفهم الحياة هذا الفهم وننظر إليها بهذا المنظار فقلما نعنى بالبحث عن وسائل الاستمتاع بها استمتعاً يغذي قلوبنا وأرواحنا ويرضي طموحنا وكبرياءنا وآمالنا وقلما نفكر في العناية باللهو والعبث والسلوى وخاعة « بثقافة الجمال » و « برسالة الحب » ونحن بذلك إنما نعطل ملكاتنا ووظائف أعضائنا التي حباها الله لنا ووهبنا إياها لاستخدامها في وظائفها ولنستمتع بما خلقت من أجله ونحن بذلك نوحش من حياتنا ونضيق من فسحاتها ونحقر من قدرها ، ثم نشكو منها ونتألم لأنها لا ترضى رغائبنا ولا تجيب حاجاتنا ، ولو انصفنا لشكونا أنفسنا وأنحينا باللائمة والتقصير على عقولنا التي نقيدها بالتعصب والحماية والتقليد ، وعلى قلوبنا التي نغلقها ونظلمها بالجهل والافراط والاسراف في المجون والعبث ، وعلى أرواحنا التي نأسرها بالكسل وبالتراخي وبالهمود ، ثم نتذمر ونلعن نظام الوجود الجائر لأنه لم يجعلنا في عداد السعداء المترفين الرافهين العلماء النابغين

ونصخب ونثور ونكتب ونحقد ونحزن ونبكي ، ولو كنا قنائة
عاديين اشكونا وصخبنا وتأللنا من انفسنا، من بعض أغنيائنا أرباب
الأرض والطين وأصحاب المنازل والقصور والتمناطير المقنطرة من
الذهب والفضة المكتنزة في طيات الورق وتحت الوسائد وأحجار
البلاط، الذين خلقوا فألفوا انفسهم اغنياء عن آباؤهم وأجدادهم في تلك
العصور السود ، عصور الاقطاعية والجبوت والاستعباد ، ثم شراء
متع النفوس وحاجات القلوب بالضياع وبالقصور وبالفدايين ، فلم
يتذوقوا ألم الفاقة ولا أوجاع الأسي ولا هموم العيش ولا ذلة السؤال ،
ولم تخمض بطونهم من الجوع أو تنحل اجسامهم وتستحل ألوانهم
من كثرة الشكوى والحاف الرجاء وطلب العون ، ولم تهطل من
عيونهم يوما دمة البؤس ممزجة بدم الوجيعة وجراح الفقر ، فليس
بغريب أن تصم آذانهم أمام شكايات البائسين وأوجاع المحتاجين ،
وان تغلق قلوبهم للمتحجرة أمام أصوات السائلين وصرخات
المعوزين ، وليس بعجيب أن يتصاموا عن اسماع صوت « الاصلاح »
لأنه لا يعنيههم أصحاب الطين والقصور بل يعنى هؤلاء المساكين
الفقراء « عبيد » هؤلاء « الأسياد » في عصر زالت فيه العبودية
والسيادة ، وهذا الصنف من الأغنياء الأشحاء الجامدين في مصر
يذكرونا بقول صاحبنا « روسو » عن أغنياء فرنسا ، قال « لم يكادوا
يذوقون لذة الأمانة حتى احتقروا غيرهم وحتى أصبحوا لا يفكرون
في شيء ، إلا اخضاع الناس واسترقاقهم ، مثل الذئب المتوحشة التي

لا تكاد تذوق طعم دم الإنسان حتى ترفض أي طعام آخر
ولا تتلذذ إلا إذا شربت منه»

ولست أدري ما الذي قدمه هذا الصنف من الأغنياء الى بلادهم
التي أثروا من أرضها وابتنوا قصورهم تحت سماءها، وملاوا بطونهم
وجيوبهم من ثمارها وخيراتها، ماذا غير تصعر الحدود وانتفاخ
الوجوه، وهز الأكتاف وإيماءة الرؤوس والحديث بالأشارات،
والتلوي والنقطع في الكلمات، والخطاب بالأنوف والنظر بالأقدام
والركل بالأرجل، ثم طي الأرض والشوارع بالسيارات واللهو
بالماجنات الغائيات، وبذر الأموال على المواثد الخضراء وقضاء
ثلثي العام كاه في الغرب بين الأندية ودور المجانة ومصايد النساء؟
هنا يحضرنى قول «روسو» وصرخته العالية المرة حين أذكر
وأنا أتألم هذا الصنف من الأغنياء الذي ابغيه وأتصوره حين
أكتب هذه السطور، وهو صنف معروف بيننا جميعاً يكاد لا يشعر
بشعورنا ولا يتألم لآلامنا، ويكف يده عنا حين يجب أن يبسطها،
ويوصد أبواب أمواله المكتنزة أمام صيحاتنا وشكاياتنا في كل
خطوات اصلاحنا حين يجب أن يفتحها، قال «روسو»: «ماذا
صنعت العائلات التي تسمى شريفة لمجد وطنها أو لسعادة بني الانسان؟
وماذا انتجت في أكثر البلاد التي سطع نجمها فيها إلا أن ظهرت
عدوة للقوانين وللحرية وإلا ان أعانت الاستبداد وظلم الشعوب؟»

نعم ! يؤلمنا جداً أن يكون بعض أغنيائنا على هذه الحال
فلا يألمون لآلامنا ولا يشعرون بشعورنا ، يؤلمنا أن ينعخوا أنفسهم
عن الميدان وعن العمل وعن عملية الأبناء والبناء والأصلاح ،
فكأنهم ليسوا منا ولسنا منهم ، وكأن مصر هي وطننا وحدنا أو
وطنهم وحدهم لأنهم « أصحاب المصالح الحقيقية » فيها كما أذيعت
هذه العبارة في هذه السنين ، يؤلمنا أن يكون في أيديهم طب الداء
وعلاج الحال ثم يقعدون ويتنحون ويسمون ويسخرون !

نعم ! ان شكونا أحداً في كل ما نشعر به من بؤس وضمك
واحتقار لمعنى « الحياة » وحرماننا من الأستمتاع بها وجعلنا
« بثقافة الجمال » وتكاسلنا عن كل وجوه الاصلاح وتأخرنا عن
الأمم التي تجري وتعدو ونحن نزحف ونحبو ، فأما نشكو أولاً
هذا الصنف الجامد من أغنيائنا وثانياً حكوماتنا وذلك لأن مصالح
البلاد تهم فئة « المحكومين » أكثر مما تهم فئة « الحاكمين » ،
لأن المحكوم هو الذي يشعر بالالم وهو يفهم الفقر ويعرف الأسى
ويقدر « الأصلاح » ، فعسانا نقبل على عصر جديد يشعر فيه
أغنياؤنا بقيمة « الأصلاح » وبال الحاجة الى العمل والأشتراك مع
الأمة في كل وجوه السعي والكمد والبناء ، ويأخذون نصيبهم من
الجد والنشاط وتقديم مواهبهم واستعدادهم و ثروتهم لأصلاح هذا
« الهيكل » المنهدم وتطيب هذا « الجسم » المنهدم من التعب
والمرض ليقوى على الحياة ويصبر على التنازع على البقاء ويثبت في

« الأنتخاب الطبيعي » ويشع القوة والعمل والخصب والخير جميعاً شرقاً وغرباً !

ونعود ثانية الى ريفنا ولهوه بعد ان أبعدهنا عنه قليلاً حضرات الاغنياء .

لسنا نعرف في القرى ما نعرف في المدن من الملاهي والنوادي للتمثيل وللهو وللمحاضرات والمناظرات ، أو مشارب للقهوة وما فيها أو ملاعب للنرد والبليارد ، أو مراقص للفتيان والفتيات ولحبي الجمال وعشاق العيبث ، ولسنا نعرف فيها دوراً للسينما ولا نوادي للرياضة ولا مكاتب لحبي الأدب وعشاق الاطلاع ، ولسنا نرى فيها ما نرى في المدن من متنزعات ، ورياض وحداثق باسقة عاطرة بالورود والازاهير غاصة بمككات الحسن ومالكات القلوب وزينة الحياة الدنيا ، ولسنا نسمع فيها ما نسمع في المدن من أصوات الكمنجة والعود والبيانو (والجازبند) !

يفارقنا كل ذلك اذا ما وطئت أقدامنا الريف المصري ، واذا كان ريفنا ساكناً ساذجاً فقيراً من « الحياة » ومن الحركة فكذلك حياة اللهو فيه بسيطة بريئة لا تزال عليها مسحة البداوة الريفية ، لا تحركها بواعث « الحياة » بل هادئة ناعسة حاملة في في الماضي الدابر والعصر الغابر ، فلا يعرف الفلاحون من أدوات الموسيقى الا « الارغول » والمزمار والطبل البلدي و « السلامية » ، وقد يكون لهذه الموسيقى الريفية جمال ، بل في الحق لسننا ننكر

ما فيها من جمال يملك علينا قلوبنا وحواسنا حيناً ، بنبراتها الريفية
البريئة العارية عن كل غموض وتعقيد وحلي ، الهادئة الساكنة
المعتدلة الرفيعة كأبناء هذا الوادي المبارك الساجي الحالم ، ولو أنها
خلو من المعاني السامية والالهامات العاليا والتيارات الروحية النبيلة ،
ولو أنها لا « تخاق » جديداً أو توقظ هامداً أو تبعث عاطفة ،
لكن مع كل هذا لها جمالها الريفي الصامت البري ، العاري عن
كل صبغة وتحسين ، نجسح اليه ونميل حيناً ، ساعة تكون عواطفنا
هائجة وملكاتنا الحاسة يقظة متعبة في العمل والحركة ، ساعة
تكر بنا هموم العيش والتفكير في مصائب الحياة التي تنصب كل
لحظة كأنها الغيث الهتون ، هنا تهمد عواطفنا الهائجة فانية في هذه
الأنعام البريئة الرقيقة ، فننسى حيناً ما في الحياة من وصب وضحك
وشقاء ،

الأرغول اذن (والسلامية) هما كل ما يعرفه الفلاح من
آلات الموسيقى ، وهو كثيراً ما يحمل أرغوله أو مزماره ويترنم به
في الغيطان والحقول الساكنة الحاملة ليرفه عن نفسه عناء العمل ،
وايهدد بها اغنامه ، وهو لا يعرف من ضروب اللهو والسلى
وقضاء أوقات فراغه والاستمتاع بما في الحياة من لذة وجمال ،
الا الجلوس على « المصطبة » أو على حافات الترع والجسور ، أو في
الطريق يلعب « السيجة » بالأحجار في التراب ، والا « لعبة الخطب »
وهي المضاربة أو المبارزة بالعصى الغليظة

ومع فقر حياة اللهو في الريف وبرائتها وبساطتها فقلما يزاؤها
الفلاح المصري ، لان مشاغل حياته كثيرة تشغله عن ان يأخذ
نصيبه من الحياة الدنيا ، من اللذة ومن اللهو ، وكيف له ان يلتذ
ويلهو وحياته بطبيعتها لا تكاد تنتهي من العمل طيلة النهار فهو من
الغيط الى الدار !

وكم تراه فرحا مغتبطا تنفرج شفته عن ابتسامة السعادة والفرح
والاستمتاع بالحياة يوم عرس في القرية أو يوم « المولد » أو موسم
من المواسم أو ليلة من « الليالي » ، هنا تجده يتكالب ويتهافت
على مكان العرس أو المولد أو الليلة ليستمتع الى مغن مشهور ، أو
غير مشهور ، أو مرتل كبير أو صغير أو منشد في حلقة الذكر ،
فيأخذ مكانه بين المستمعين ليرفه عن نفسه ويبرد قلبه ويضيئه باسماع
آيات كتاب الله الكريم ، أو قصائد مدح نبيه العظيم ، ثم تفجؤك
بل تروءك هبته وصيحاته العاليات الصاخبات ، صيحات الاستحسان
والاعجاب ، فيقفز من مكانه أو يلقى بما على رأسه من « طاقة »
أو « لبدة » في الأرض ، ثم يهرول الى المقريء أو المغنى طالبا
منه اعادة ما يقوله وينشده ، لأنه حرك هامد عواطفه ، وأيقظ
نائم حواسه وأروى قلبه الصادي المغلق أمام منافذ الجمال والفتون
واللذة .

وإذا أردت أن تتحقق من « يوم » الفلاح فهو يوم الموالد
للأولياء ، فتراه يبرح قريته ويتوجه الى مكان المولد معها كان

بعيداً ومهما كانت الطرق اليه ماتوية عسرة ، وقد يسافر له خاصة ،
وقد يقترض من أجله ليوزع على الغانيات الساقطات بعض
ما يقترض ثمنا لا بتسامة ماجنة فاسقة أو قبلة أمام الأنظار جميعاً
من رجال ونساء وما الى القبلة من حاجات النفس الوضيعة الساقطة
ورغائبها الساقطة القدرة ، نفس لم تهذبها التربية ولم يشدها المجتمع ،
والبعض الآخر يشتري منه جانباً من « الحصص » أو « حب العزيز »
أو « الخلاوة السمسامية » لزوجته وأولاده ولافراد عائلته من أقارب
وأصهار ومن كل ذي نسب ورحم ، واذا ما وصل الى « التياترو »
أو الى « السرك » بمعنى أدق ، عرضت عليه المهازل والمساخر التي
تلائم عقلته المستعدة للهزل والسخرية ، وهناك تقع عيناه على أشد
المناظر فحشا وأنكرها فسوقا ومجانة ، وهو مع ذلك فرح مغتبط
لأنها تلائم شهواته وترضي عواطفه وتشبع ميوله ، وهناك تعرض
عليه رقصات البطن الماجنة الفاحشة من بنات الخلاعة والهوى
الفاسق ، وهناك يلتقى على سمعه وعلى سمع رجال الادارة أيضاً أغان
وأدوار كلها الفحش والفسق ، وكلها مما يحرض مباشرة وجهاً على
هتك ستر الحياء وعلى الأغراق في المجانة والفسوق وما اليهما ،
ولا يبالي أصحاب هذه الملاهي أو هذه « الخوامير » بمعنى أصح
وأقرب الى الحق بوجود نساء بين الرجال يشهدن هذه المناظر
ويسمعن هذه الأغاني ، يشهدن رجالاً يحتضن غانية ويصرن غانية
تتلوى وتهتز في حركات تهيج العواطف وتوقظ الشهوات ، ويسمعن

أغاني تخرض تخرضا صريحا على ما ينزل بالنفس وبالأخلاق الى
أحط ما يمكنها أن تنزل اليه ، ولكن لماذا يبالون وهم يرون في عرض
هذه المشاهد وهذه الأغاني رواجاً لسوقهم وربحاً أي ربح لتجارهم؟
ولماذا يتخرجون وعواطف بعض النساء نفسها تريد ذلك وميولهن
تميل الى هذه الأغاني الماجنة وتلك المشاهد المغرية ، وأن بذلن كل
جهودهن ليخفين عواطفهن الباطنة وشهورهن الداخلي من تستر
واصطناع الحياء وادعاء الخفر؟

وإذا عرفت ان فلاحنا يرقص طرباً ويطير فرحاً لا بسط منظر
من مناظر اللهو ، فلا يأخذك العجب لو رأيت رجال القرية ونساءها
وأطفالها خرجوا جميعاً من دورهم مهرولين ليسمعوا ما يحكيه
« الفونوغراف » ، واشهد الله شهادة لا حنث فيها ولا كذب ، أتى
قد كدت أبكي أسفا لعقلية جماعة من الفلاحين والفلاحات ولحرمانهم
من موارد اللهو وأمكنة الاستمتاع بالحياة واقدرة على التسلية ،
يوم أبصرت هذه الجماعة في قرية صغيرة من قرى ريفنا المصري
لا تزال حية ترزق حتى كتابة هذه السطور ، ابصرتهم جميعاً
قعوداً ووقوفاً أمام « الفونوغراف » ينظرون بلهفة وبذهول الى
ذلك « الانسان » الذي يختبيء في نفير « الفونوغراف » ثم يعني
ما يردده هذا الفونوغراف ، ثم يحاولون أن يتعرفوا كل شيء عن
هذا الانسان المختبيء ، واني لا أذكر أتى رأيت بينهم امرأة عجوزاً
تراجع الى الوراء وجلاً وخوفاً لأنها كانت قد سمعت « اسطوانة »

تحكى شجاراً وعراكاً فخافت أن تمسها عصا من عصيهم أو لطمه من لطماتهم ، : عقلية مسكينة جاهلة تستحق الرحمة والشفقة

لقد ذكرت أن آلات الموسيقى في ريفنا هي الأرغول والسلامية ونسيت أن أذكر عاملاً ثالثاً مهماً في حياة اللهو في ريفنا المصري لا يخلو من خطر واهمية ، ذلك هو « الربابة » ويقابلها في المدن « الكمنجة » ، وإذا كنا نتقبل الاصوات والأغاني وأدوار الموسيقى بآلاتها المختلفة ونستحسنها ونسوغها بحسب ثقافتنا وتكويننا العلمي وتربيتنا الخلقية وبحسب استعدادنا لقبول الالهامات العليا وشعورنا بساطان « الجمال » وادراكنا « للعالم الباطني » ، أقول إذا كنا كذلك فليس بعجيب أن تكون « الربابة » عند الريفيين ولدي العامة أشد من « الكمنجة » تأثيراً في العواطف وامتلاكاً للقلوب وللحواس جميعاً وأدعي الى ترقيقها وتهذيبها ، واشد ما يهرع الريفيون الى ذلك الذي يسمونه « شاعراً » ويجلسون حواليه وتعتلى النساء أسطحه الدور ويترامي الاطفال والاولاد تحت أقدام الرجال ، ثم يجلس هذا « الشاعر » على دكة خشبية ليظهر بين القوم ، ويمسك ربابته ويبدأ بتجربة الاوتار ثم يشفعها « بكسحة » تتوالى المرة بعد المرة فيرهفون له آذانهم الصاغية ويسود عليهم جميعاً السكون وكان على رؤوسهم الطير !

وهنا يبدأ هذا « الشاعر » بمديح النبي عليه السلام ، ولا يخلو

هذا المديح غالباً من « التغزل » أو التشبب به ، فهو جميل ،

أ كحل العينين ، أدعجها ، بهما حور ، احمر الخدين ، متورد
الوجنتين ، دقيق الفم ، لؤلؤي الشيا ، ياقوتي الشفتين ، والى غير هذا
مما هو خليق بالحسان وبالغيد الجميلات لابني عظيم صاحب دين كريم
ودستور اجتماعي كبير خطير ، لا بمحمد صاحب « الرسالة » الكبرى
ونبي الكتاب الاعظم ، ومن العجيب بل من المخجل حقا أن نسمع في
هذا العصر الذي نعيش فيه وفي سنى تلك النهضة التي نهضناها والخطى
التي خطوناها ، أن نسمع عن « النبي » من الوصف ما نسمعه من
المجنون عن « ليلاه » ومن كثير عن « عزة » ، ان هذه لا كبر
وصمة تنزلها بديننا وأشد جريمة نرتكبها ضد « نبينا » ، ولقدحان
الحين لأن نعرف عن « النبي » ما يليق باسمه العظيم وبيته القويم
وبرسالته الكبرى وبمذاهبه وتعاليمه الاجتماعية الروحية الفلسفية
الخالدة أبد الآبدين وإذا ما عرفناه حقا وفهمناه كما يجب ان نفهمه ،
هنا يكون حيننا له وصلتنا به واندماجنا فيه وتبعنا وخضوعنا لتعاليمه
ولسنته ، اقوى وأثبت وأصدق من هذا التغزل المخجل وهذه
الالفاظ الحقيرة ، ولن يكون « حب الجهل » كحب المعرفة والفهم
والأدراك !

ثم يتطرق هذا « الشاعر » من مديح النبي عليه السلام الى مديح
أبي زيد الهلالي فيذكر قصيدته هو والزناتي خليفة ودياب بن غانم ،
وما أظهره كل من هؤلاء الفرسان الابطال في الحرب من ضروب
الشجاعة الخارقة وما قاساه « الهلالية » من ألوان الهول والبأس ،

وكيف أذلوا « الزناتية » وقهروهم وأخضعوهم الى سلطانهم ، ثم
يذكر جمال «عاليه» امرأة أبي زيد، ويتغزل فيها ويتشبه بكل جزء من
جسمها، ويفتن في وصف كل مظهر من مظاهر جمالها، في صوت لا يخلو
من جمال احبانا، بحيث ترى الكل قد استغزتهم هذه الضروب من
الشجاعة فحركت فيهم النخوة والبسالة واطهروا اعجابا بهؤلاء الابطال،
واعجابا باخا صا كله التفانى والولاء والتعصب «لأبي زيد» بطل الحرب
ورجلها، وعند اشادة «الشاعر» بحاسن «عالية» وغيرها من النساء
وبعيونهن وشعورهن وصدورهن ونهودهن ، ترى الرجال قد
توسعت احداق عيونهم وانفجرت شفاههم عن ابتسامات لها
معناها وعن ضحكات الاعجاب، وتمثلت شهواتهم وبرزت سافرة
على عيونهم وعلى وجوههم كأنهم يشهدون حقا «عالية» هذه،
وكأنها امامهم تنفت فيهم سحر جمالها ودلالها، وكأنهم يريدون
أن يقتلوها نظرا وتفريسا و «زنا العيون» !

هذا الضرب من اللهو الريفى المصرى البسيط البالغ جمال
البساطة وبراءة السداجة ، ليس قاصرا على الريف بل يجد منازله
حينما فى بعض احياء مدننا عند العامة ومن اليها ، وليس هو بقاصر
أيضا على مصر وحدها ، فاننا نعرف «اللياذه والاوديسا» لهومير
ان تحققت هذه النسبة من الوجهة التاريخية الادبية ، ونعرف أن
اليونان القدماء كانوا خاضعين كل الخضوع لهذا الضرب من اللهو

وكذلك كل الامم في عهود بداوتها وفطرتها ، وكانوا يتلذذون
حقا بالجلوس أو الوقوف حول « هومير » وغيره من القصاص
والشعراء يذكرون لهم الحروب القديمة وأبطالها ، واعمال هؤلاء
الابطال وشجاعتهم وبسالتهم ، كل ذلك بأسلوب قصصي جميل له
جماله وله انعامه يتفق وعواطف القوم وميولهم وشعورهم وأوساطهم
وتربيبتهم وتكوينهم ، ونحن نعرف ايضا ان لكل أمة بدويتها
ومتحضرها ضروريتها من اللهو ، ولكل منها الطرق والوسائل المختلفة
لأرضاء عواطفها ونزعاتها ، واشباع شهواتها وميولها ، وحاجات
عقولها وقلوبها

واذا كانت أيام « الاعياد » تحسب من حياة اللهو ، فما هو
يوم العيد في ريفنا المصري ؟ تحس بتباشير « العيد » حينما ترى
كل امرأة تحيك ثياب أولادها الجدد ، وحينما تبصر حركة عامة
شاملة في البيوت جميعا ليلا ونهارا : من عجيب الخبز واعداد « كعك »
العيد ، ومن دخان متصاعد من فجوات الدار ومن فرنها ، ومن
عملية غسل ، ثم تجفيف ونشر على أسطحه الدور ، الى عملية كنس
الحارات ، كل امرأة أمام دارها ، الى عملية « الحناء » وخروج كل
امرأة في الليل ببلاصها أو صفيحتها الى الترععة للاستعداد للاستحمام
والاغتسال !

وان تطلع الشمس من خدرها ومقصورتها صباح العيد حتي
تملاً عينك مناظر الاطفال والاولاد بجلايبهم الحمراء والبيضاء ،

وبأيديهم الملطخة بالحناء ، وفي أيديهم قطع الحلوى أو « عفريت
النسوان » أو لعب أخرى ، ثم تبصر جماعات الريفيين بجلاليتهم
البيضاء غالباً ، ويبلغهم الصفراء الجديدة ولبدهم السوداء أو الحمراء
حيناً ، يسرون مبتسمين فرحين مهنئين بعضهم بعضاً بالعيد السعيد
المبارك ، الذي قلما يتلاقون ويتقاربون جميعاً الا في مثله متوجهين الى
المصلى والى المساجد حيث يقيمون هناك صلاة العيد ، وبعد ذلك
الى مقابر الموتى حيث يرفعون لهم هناك أدعية الرحمة وينزلون عليهم
غيث المغفرة والرضوان ، وحيث يتذاكرون المصير الاخير والنهاية
القاسية المرة ، ويتذاكرون موتاهم الاعزاء وماذا خلفوا في حياتهم ،
فيتخذون منهم ومن اجسادهم وعظامهم عبرة الحياة وعظة الموت
ودرس « المصير »

وهناك تشاهد بين المقابر جماعات النساء بسلاهم وبأسباتهم
مليئة بالكعك وبالتمر وبالحلوى لتوزع على جموع الاطفال والاولاد
هناك « رحمة » على موتاهن وذكري لعهودهم ووفاء لحقوقهم ،
ويملاً سمعك أصوات عالية من جماعات « الفقهاء » يقرأون سورة
« يس » الكريمة خاصة ، ثم يجازون على ذلك ببضع « كعكات »
أو جانب من التمر

وأخيراً يعودون الى ديارهم ، يتزاورون ويهنئون بعضهم بعضاً
رجالاً ونساءً ، وفي العصر يخرج الرجال الى الخلاء والامكنة
الفسيحة أو « الاجران » ، وهناك يلعبون « لعبة الخطب » وهي

كما قلنا المبارزة أو المضاربة بالعصى الغليظة ، أو يعبون بالكرة
من الخرق البالية ، أو يقضون جانباً من الوقت في « الاراجيح »
المزدحمة ساحتها بالاطفال والفتيات والرجال

ومن المدهش أن ترى أحيانا في يوم العيد في الحمول كثيراً
من الفلاحين بجلايبهم الزرقاء يزاولون عملهم اليومي بجد ونشاط
ولا يعطون جسومهم حقها من الراحة حتى في مثل هذا اليوم !

هذه هي صورة مختصرة جداً للعيد في الريف . وهي صورة
ساذجة بريئة كما نرى ، ولكن نلاحظ انه ينقصها روح « الحياة »
والشعور بالذات ، وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة في مدننا وفي

ريفنا ، فلن نفهم من العيد إلا الملابس الجديدة الانيقة والا الطهي
الجيد والمأكولات الشبيهة ، أما العيد كيوم نلتقي فيه والطبيعة
العظيمة المحبوبة الجميلة في حدائقها وأزهارها وبحارها وأنهارها
أما العيد كيوم نحاول فيه الشعور بذواتنا وتغذية قلوبنا وأرواحنا

مما في هذا العالم الرحيب من نور ومن جمال ، ونطلق فيه نفوسنا
على سجاياها وطبائعها تنتقل على أفنان الحب وبين دوحات الجمال
لا وجلة ولا متوجسة شراً ولا خائفة رقيقاً أو عاذلاً أو مواضعات
الناس .

أما العيد بهذا المعنى فبعيد عن بيئتنا المصرية وعن تفكيرنا ،
وهكذا نخلق لأنفسنا بأنفسنا مواضع الوحشة وغياهب الظلام
وقيود الأسر !

قلنا قبل الآن أن الفلاح المصري — رغما من بساطة حياة
اللهو لديه — فهو لا يزاو لها الا ندورا ، فلما نعرف رجلا مشغولا
عن العالم وعن هوه ولداته منعزلا قابها في داره ، محتقرا للحياة أو
لمعناها بمعنى أصح مثل فلاحنا المصري ، فهو لا يقدر لنفسه وجودا
ذاتيا ولا يدرك معنى الشعور بالحياة ، ولا يعرف ان هذه الحياة ملك
لنا وحدنا ، نستمتع بها كيف نشاء ، وأي نريد وحيث نرغب ، أو
ليست هذه الضروب من اللهو الا نوعا من العزاء والسلوى عما
نلاقيه في هذه الحياة من عنت ومن شقاء ؟ فليس من مصاب الا
قدر الله له السلوى وليس من داء الا أوجد له الله الدواء ! وألا
فكيف تكون هذه الحياة التي نحياها اذا كانت خلوا من السلوى
وفيها ما فيها من نعص وبلاء ؟ والا فما فائدتنا من قلوبنا ومن آذاننا
ومن عيوننا ، اذا لم تكن طرقا ومنافذ الى اللهو والى الاستمتاع بكل
ما في الوجود قبل أن يفلقها الردم ويسدها ثرى الرمس ويطويها
ظلام اللحد ؟ وماذا كان يكون مصيرنا وحياتنا اذا أريد منا أن
نتحمل الألم وحده ثم نحرم اللذة ؟ وماذا كان يكون حالنا لو
احتبست الآلام بين أطواء قلوبنا فلن تجدها مخرجا الى العزاء أو
متنفسا عن الشقاء ؟ كان أن تنفجر قلوبنا لتلفظ منها آلامها ،
وتندك جسومنا لتطرد عنها همومها ، كان يكون الفناء والدمار والبوارا
نم ما الموت ؟ أليس هو حرمان القلب أن يجب ، والعين أن ترى ،
والنفس أن تتذوق لذات الحياة ، والروح أن تحوم في معابد الجمال

وأما كن القداسة؟ وإذا كنا لا نتذوق لذات الحياة ونستمتع بلهوها
وعبثها الآن، فمتي تتاح لنا الفرصة لنلتذ ولنلهو ونعبث؟ أفي الرسم
وقد اندثرت قلوبنا تحت أحجاره، وبلي جسمنا تحت انقاضه.
وتبددت عظامنا بين جوانبه، وتبعثرت آمالنا وأحلامنا ورغباتنا
وشهواتنا هواء في ظلام وضلال تراه؟

